

# المهابهاراتا... الملحمة الهندية التي لم تعد هندية

## أطول قصيدة في تاريخ البشرية لا تزال تبهر العالم

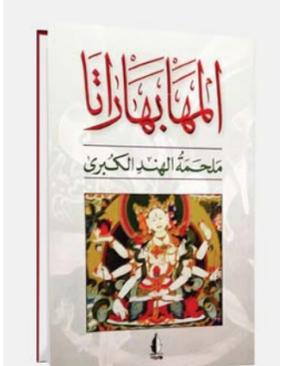


### ملحمة تتغنى بانتصارات الملوك

الطبعات التي صدرت كانت "ملحمة الهند الخالدة المهابهاراتا" عن سلسلة "دراسات فكرية" التي تنشرها جامعة الكوفة وتوزعها دار الرافدين في بيروت، ونقلها إلى العربية حسن ناصر. أما على الصعيد المسرحي فيبدو أن الأمر بات يشبه محرم بعد أن أقدم البريطاني بيتر بروك على مغامرته وأشبعها إبهارا حتى أنه استقدم التراب من أرض الهند كي تلامسه أقدام الممثلين. وما عدا ذلك فالأمر لا يتجاوز بعض مشاريع التخرج مثل العراقية جمانة الباسري التي أعدت دراسة بعنوان "الإعداد المسرحي للمحمة المهابهاراتا الهندية (خصوصية المعنى وتميز الشكل)".

تعد هذه الدراسة الأولى من نوعها في مجال الدراسات المسرحية المتعلقة بالمحمة الملحمي بشكل عام والمهابهاراتا بشكل خاص، وذلك بسبب افتقار المكتبة العربية لمثل هذه الدراسات من حيث التأليف أو الترجمة على الرغم من أهمية الموضوع والتي تنبع من عظمة هذه الملحمة وتأثيرها على الكثير من الحضارات من جهة وأهميتها بالنسبة إلى الممارسة المسرحية العربية الحديثة.

تعد هذه الدراسة الأولى من نوعها في مجال الدراسات المسرحية المتعلقة بالمحمة الملحمي بشكل عام والمهابهاراتا بشكل خاص، وذلك بسبب افتقار المكتبة العربية لمثل هذه الدراسات من حيث التأليف أو الترجمة على الرغم من أهمية الموضوع والتي تنبع من عظمة هذه الملحمة وتأثيرها على الكثير من الحضارات من جهة وأهميتها بالنسبة إلى الممارسة المسرحية العربية الحديثة.



الأغرب من ذلك كله أن الملحمة تتحدث عن معركة عظيمة تدور بين رجال في آلات طائرة وانفجارات مشابهة للانفجارات النووية وأسلحة ضخمة شبيهة بالموجودة في عصرنا الحالي، والمثير للدهشة أن الأسطورة تمت كتابتها منذ ألفي عام وأكثر غرابة أن الإنجيل يحكي عن قصة مشابهة لها، وهو ما قد يدفع إلى التساؤل عما إذا كانت مجرد قصة خيالية أم أنهم يتحدثون عن أمر شاهدوه بالفعل؟

من إله الريح فايو، وآخرون من الملوك المحاربين (الشترايا) وحاربوا الأعداء وبسطوا الملك والعدل والحكمة.

ثم جاءت مرحلة أخرى من النزاع والتنافس بين أبناء العمومة، وحدثت جرائم ومكائد جعلت ستيافاني بناء على نصيحة ابنها فياسا تعزل في الغابة وتتصرف إلى رياضة النفس واليوغا حتى ماتت.

تتعد الإحاطة بسيرة المهابهاراتا أو حتى تلخيصها في بضعة سطور، لكن لا بد من التوضيح والإشارة إلى أن عقائد كثيرة قد خرجت من رحم هذه الملحمة التي تختصر قصة الحضارة الإنسانية مثلها مثل جليجامش التي تدور أحداثها في بلاد ما بين النهرين وتسرده أسطورة الجنس البشري وعلاقته بالخلود. صفوة القول إن المهابهاراتا تشكل جزءاً هاماً من ثقافة شبه القارة الهندية، وهي نصٌ رئيسي من نصوص الهندوسية. أحداثها محاولة لمناقشة الأهداف الإنسانية الكبرى والتي غدت مصطلحات متعارفاً عليها في كل لغات العالم (أرنا أو الغرض، كما أو المتعة، دارما أو الواجب، موكتشا أو التحرر)، وذلك ضمن تقليد راسخ يحاول تفسير العلاقة بين الفرد والمجتمع والعالم، وطبيعة الذات البشرية في علاقتها مع الذات الإلهية.

دراسات كثيرة لا تحصى تناولت وما زالت تتناول هذه الملحمة الخالدة من زوايا متعددة، ما عساه يكتب المرء عن قصيدة تتألف من مئة ألف بيت عن الهند بحكماتها وملوكها والتهنئة؛ إن مجرد الكتابة عن حكمة الهند هو ضرب من الغرغرة في مياه البحر، ولعل هذا هو سحر تلك البلاد التي تبهر في كل شيء، وتحوي الشيء وتقيضه.

إن كان لا بد من تخصيص مكتبة تتعلق بالمهابهاراتا فلا شك أن عدد رفوفها يعادل عمارة بكاملها، جدا الدراسات العربية ما زالت مقصورة جداً على الرغم من اقتراب من هذه الملحمة من الثقافة العربية وتقاطع نصوصها مع كتابات قديمة في شرقنا المدمج بالأساطير والحكايات. ونحن العرب أطلقنا على التوابل اسم بهارات تيمنا بالهند لأنها كانت قادمة من هناك حيث جلب التجار العرب التوابل الهندية والحريز واللؤلؤ وغيرها من شبه القارة الهندية كما يورد الباحث وائل عواد.

وإذا كان لا بد من بعض المسح لما كتب عربياً حول الملحمة الهندية فهذه دراسة للباحثة هدى ملاحي تهدف إلى لوج عالم السرد الملحمي واعتمدت على المنهج النقدي الوصفي. وارتكزت الدراسة على عدة عناصر، كشف العنصر الأول عن قراءة في أوراق المهابهاراتا. وركز العنصر الثاني على عنوان الملحمة. واستعرض العنصر الثالث المفاهيم الأساسية لنص المهابهاراتا. وتطرق العنصر الرابع إلى العناصر التحديدية.

الاهتمام العربي بالملحمة الهندية بدأ يتكشف خصوصاً بعد الاطلاع على ما نشر وعرض في الغرب، ولعل أفضل

واللغات وفن الحرب والسلوك والحكم، فهي مستودع للأسرار والمعارف والعلوم، وسجل للأحداث.

قال براهما: إن فعليك أن تملي القصيدة على غانيشا لأنها بذلك ستخلد للأبد ويردد الناس أبياتها جيلاً بعد جيل على مر العصور، وجعل فياسا يحكي وغانيشا بدون بلا توقف حتى أنه عندما نفذ القلم قلع نابه وأخذ يواصل الكتابة.



جواهر لال نهرو  
لا أعرف كتاباً له مثل هذا النفوذ على أذهان الناس وقلوبهم

غوستاف لوبون  
الفن زبدة جميع العوالم وخلاصة ناطقة لجميع أدوار التاريخ

كان قوروش ملكاً زاهداً عادلاً وكبير في السن ولم ينجب، ثم أنجب وهو شيخ كبير ابنه شنتانو الذي ورث أباه، وكان قوروش قد لقي فتاة جميلة تسري فيها دماء الآلهة، هجنت عليه فجأة وهو يتأمل في الغابة، وجلس على رجله اليمنى وطلبت منه أن يتزوجها، فقال لها: لقد جلست في مكان البنات والكنايات فإن شئت تزوجت من ابني، وعندما كبر شنتانو وأخذ يخرج للصيد لقيته الفتاة إياها فأحبها وأراد أن يتزوجها، ولكنها اشتطرت عليه إلا يمنعها من عمل تعمله مهما كان، وستكون زوجة صالحة، وولدت له ثمانية أولاد كانت ترمي كل واحد منهم عندما يولد في النهر.

وعندما جاء الابن الثامن رفض شنتانو أن تربيته أمه في النهر وتمسك به، فطاعت زوجته ولكنها تركته ومعها ابنها كما في شرط زواجهما، فمضت ومعها ابنها الذي سمي غانجاندا أي هبة الغانج، وكبر غانجاندا في كنف أمه، وتعلم الأسفار وفنون القتال والصيد، ثم أعادته أمه إلى أبيه الملك شنتانو، ففرح به أبوه وجعله ولياً للعهد.

ثم لقي الملك شنتانو في تجواله ستيافاني ابنة الصيد التي أنجب فياسا، فأحبها الملك وخطبها من أبيها كبير الصيادين، فوافق أبوها ولكنه اشتراط أن يكون ابنها ولياً للعهد، فاستشار الملك ابنه غانجاندا، فوافق هذا وأعلن نذراً أنه لن يتزوج أبداً حتى يبقى الملك في عقب أخيه، وسمي منذ ذلك اليوم بهيشما أي صاحب النذر العظيم، ولكن إخوان بهيشما لم ينجبوا أولاداً وأصر بهيشما على عدم الزواج فاستدعت ستيافاني ابنتها فياسا، واقترحت عليه أن يتزوج من أرملتي إخوانه لينجب ولياً للعهد، وأنجب ثلاثة أولاد.

وتوالت الملوك من عقب فياسا ونشأوا في كنف عمهم بهيشما، والتقن بعضهم ببنات الآلهة الجميلات، وجاء بوديشترا من ذرية دارما إله العدل والشرية، وأمّه كونتي، وجاء ملوك

الهنود، والذي ظهر في قصة تشبهه ولادة المسيح؛ فقد كان الحكيم الزاهد برشارا يطوف البلاد قاصداً العتبات المقدسة، فلقي ستيافاني وهي فتاة جميلة وابنة كبير الصيادين في جزيرة تقع في منتصف نهر يامونا، وكانت الفتاة تصطحق قارب أبيها، فقال لها الحكيم: هل تقبلي بي لأودع جبي وشوقي؛ فخافت الفتاة واستترت ما يطلبه منها الحكيم، فهي عذراء في كنف أبيها ولا يليق به أن تقع في ما يوحي به الحكيم، وفرد الحكيم برشارا ذراعيه، فثار صباب كفيف عظيم لف الحكيم والفتاة معا ثم عاد كل منهما إلى حاله وكان أمراً لم يقع، وقال الحكيم للفتاة: لا بأس عليك فما زلت عفيفة لم يمسسك سوء.

وهنا تذكير واضح بالديانات السماوية التي تحدثت عن العفة والطهارة النورانية التي تنزل الانقياء والصالحين منزلة أنصاف الآلهة من حيث السمو عن فعل الجنس البشري كما ورد في قصة ميلاد المسيح، ونطقه بالحق وهو في المهدي، إذ حملت ستيافاني وولدت طفلاً تكلم من أول لحظة ولد فيها، وقال لأمه إنه سيغادر ويمضي في السهول والغابات والأنهار، وإن احتاجت إليه فما عليها سوى أن تستدعيه بخاطرها فيحضر إليها في الحال، وعرف هذا الفتى باسم دوايبانا أي ابن الجزيرة، وعرف أيضاً باسم فياسا أي جامع الأرزهار، ونشأ فياسا على الفضيلة والزهد والحكمة، وجمع الأسفار القديمة. وكان إنشاء فياسا واحفاده ملوكاً وحكاماً أسسوا في الهند للعدل والحكمة وحاربوا بشجاعة وبغوا ممالك ودولاً وأسسوا حضارة الهند العظيمة.

قابل الحكيم فياسا إله الحكمة براهما وقال له: لقد اكتملت لدي قصيدة تعرض ما كان من أمر الماضي وتبسط ما يجري، وترسم ما سوف يكون في المستقبل، وتحكي ما يعصف بالبشرية، وتصف أصول الزهد ورياضة النفس، وتحدد أبعاد النجوم والكواكب والأنهار والجبال والمدن والبحار، وتلخص الحكمة والفلسفة، وتشرح المناسك

الهنود، والذي ظهر في قصة تشبهه ولادة المسيح؛ فقد كان الحكيم الزاهد برشارا يطوف البلاد قاصداً العتبات المقدسة، فلقي ستيافاني وهي فتاة جميلة وابنة كبير الصيادين في جزيرة تقع في منتصف نهر يامونا، وكانت الفتاة تصطحق قارب أبيها، فقال لها الحكيم: هل تقبلي بي لأودع جبي وشوقي؛ فخافت الفتاة واستترت ما يطلبه منها الحكيم، فهي عذراء في كنف أبيها ولا يليق به أن تقع في ما يوحي به الحكيم، وفرد الحكيم برشارا ذراعيه، فثار صباب كفيف عظيم لف الحكيم والفتاة معا ثم عاد كل منهما إلى حاله وكان أمراً لم يقع، وقال الحكيم للفتاة: لا بأس عليك فما زلت عفيفة لم يمسسك سوء.



على الرغم من أن تاريخها يرجع إلى عهود بالغة القدم، إلا أنها ما زالت قوة حية امتزجت بدماء الشعب الهندي وجسدت فنونه وأدبه. تتحدث عن المهابهاراتا التي كتب عنها جواهر لال نهرو قائلاً "لا أعرف كتاباً في أي مكان له مثل هذا النفوذ المستمر والأثر النفاذ على أذهان عامة الناس وقلوبهم مثل ما لهذه الملحمة". وصارت شخصياتها أسماء مقدسة، مثلها في ذلك مثل الهند التي قال عنها المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون "الهند زبدة جميع العوالم وخلاصة ناطقة لجميع أدوار التاريخ".

وضعتها الراهن، وتجمع هذه الملحمة بين العقائد والفلسفات الهندوسية والبوذية والصوفية، وتشبه بعض أخبارها قصص الأنبياء مثل المسيح وزكريا ويحيى، وقصر سليمان العظيم الذي بناه له عفاريت الجن كما هي معروفة في الكتب المقدسة للأديان السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، كما تشبه أساطير اليونان وبخاصة في تعدد الآلهة.

لم تأخذ المهابهاراتا شكلها النهائي إلا في القرن الرابع الميلادي بعد ثمانية قرون متواصلة من الإضافات والإبداع والتوليف جعلت منها تدريجياً بوتقة انصهار للعديد من القصص والأساطير والخرافات الشعبية والنصوص المقدسة التي تنعكس مجمل مظاهر ومراتب الحياة الدنياوية والدينية للمجتمع الهندي. وتعتبر المهابهاراتا عين الأدب السنسكريتي الثري العريق، وهي الأساس والأصل للكثير من المعتقدات

الأيمنية والأيمنية، لكنها حافظت على جوهريها المتمثل في تمجيد روح الهند المبنية على حب الحكمة وتقديس المحبة الإلهية التي تسري إلى البشر فتصنع المعجزات. هي عين الأدب السنسكريتي الثري العريق، كما يصفها النقاد والدارسون. وهي الأساس والأصل للكثير من المعتقدات والأساطير والتعاليم والشخصيات التي لا تزال جزءاً من الحياة في الهند حتى اليوم. هي حكاية صراع دموي بين أبناء باندا، وهم من نسل الآلهة، وأبناء عههم الأعمى ديتاراشترا، وهم من نسل شيطاني. لكن هذا الصراع الدموي العنيف على الملوك يجتذب الأرباب جميعاً للدخول في المعركة أو اتخاذ موقف منها. وإذا أردنا الاختصار فإن الأرباب والمفاهيم الهندوسية الفلسفية والأخلاقية كلها تدخل في نسج الحكاية. ثمة قول شائع في الهند مفاده "كل شيء في المهابهاراتا موجود في مكان ما، وما لا يوجد فيها لن يوجد في أي مكان آخر".

منذ أيام قليلة أعلن الملياردير هندي يعيش في الإمارات عن نيته تمويل أعلى فيلم في تاريخ بلاده من خلال استثمار 150 مليون دولار في عمل عن ملحمة المهابهاراتا الهندية الشهيرة. وصرح رجل الأعمال بي. آر. شيتي في بيان صدر عن مكتبه "أظن أن هذا الفيلم لن يفرض معايير عالمية جديدة فحسب بل إنه سيظهر أيضاً "جمالية السرد الميثولوجي" في الهند. ويأمل هذا الملياردير أن يترجم هذا الفيلم الطويل إلى أكثر من 100 لغة ليشاهده أكثر من ثلاثة مليارات شخص في العالم.

ويذكر أن الملحمة الهندية المعروفة جدا كانت قد نقلت مرات عدة إلى الشاشة، أبرزها في إطار مسلسل تلفزيوني عرف نجاحاً باهراً في الثمانينات.

مزج بين البطولة والخيال لا أحد في هذا العالم الضيق الفسح لم يسع أو يقرأ أو يشاهد شيئاً عن ملحمة الهند الكبرى المسماة بـ"المهابهاراتا". ومن اللافت أن المملكة العربية السعودية قد أدرجت في مناهجها التعليمية المفاهيم الهندوسية، وأبرزها التعريف بملحمة المهابهاراتا، وذلك ضمن حملة تحديث النظم التربوية وانفتاحها على الثقافات الأخرى. إنها كما الإلياذة والأوديسة عند قدماء الإغريق، والشاهنامه لدى الفرس، وإينس الرومانية التي كتبها فيرجيل مستملاً طرف الخيط من أسلافه اليونانيين، تاتي عنها كما قصيدة تورخ للامة وتوثق محطات تاريخها بأسلوب ملحمي يمزج بين البطولة والخيال. تحوي هذه الملحمة التي تقارب المئة ألف بيت من الشعر تاريخ الهنود وأساطيرهم وحكاياتهم، وتعد لدى الهنود السفر الخامس من أسفار الحكمة، وتعتبر مصدراً غنياً من مصادر التصوف. وقد عُني بها أيضاً المسلمون في الهند، فترجمت إلى الأوردية، ونشرت لباحثين مسلمين حولها دراسات كثيرة، كما ذكرها ابن المقفع الذي كان جسراً ثقافياً يربط بين بلاد الهند والفرس والعرب في العصر الذي نشطت فيه الترجمة وازدهرت المكتبات.

كل شيء يأتي من بلاد الهند يوحى بالضخامة والغرابة والإمتاع، وكذلك هي المهابهاراتا التي تفوق في حجمها ثمانية أضعاف الإلياذة والأوديسة مجتمعين، وقد جمعت والفت قبل الميلاد بحوالي ألف وخمس مئة سنة، ولكن جرت عليها إضافات وتعديلات حتى استقرت على

حكيم مرزوقبي  
كاتب تونسي

منذ أيام قليلة أعلن الملياردير هندي يعيش في الإمارات عن نيته تمويل أعلى فيلم في تاريخ بلاده من خلال استثمار 150 مليون دولار في عمل عن ملحمة المهابهاراتا الهندية الشهيرة. وصرح رجل الأعمال بي. آر. شيتي في بيان صدر عن مكتبه "أظن أن هذا الفيلم لن يفرض معايير عالمية جديدة فحسب بل إنه سيظهر أيضاً "جمالية السرد الميثولوجي" في الهند. ويأمل هذا الملياردير أن يترجم هذا الفيلم الطويل إلى أكثر من 100 لغة ليشاهده أكثر من ثلاثة مليارات شخص في العالم.

ويذكر أن الملحمة الهندية المعروفة جدا كانت قد نقلت مرات عدة إلى الشاشة، أبرزها في إطار مسلسل تلفزيوني عرف نجاحاً باهراً في الثمانينات.

مزج بين البطولة والخيال لا أحد في هذا العالم الضيق الفسح لم يسع أو يقرأ أو يشاهد شيئاً عن ملحمة الهند الكبرى المسماة بـ"المهابهاراتا". ومن اللافت أن المملكة العربية السعودية قد أدرجت في مناهجها التعليمية المفاهيم الهندوسية، وأبرزها التعريف بملحمة المهابهاراتا، وذلك ضمن حملة تحديث النظم التربوية وانفتاحها على الثقافات الأخرى. إنها كما الإلياذة والأوديسة عند قدماء الإغريق، والشاهنامه لدى الفرس، وإينس الرومانية التي كتبها فيرجيل مستملاً طرف الخيط من أسلافه اليونانيين، تاتي عنها كما قصيدة تورخ للامة وتوثق محطات تاريخها بأسلوب ملحمي يمزج بين البطولة والخيال. تحوي هذه الملحمة التي تقارب المئة ألف بيت من الشعر تاريخ الهنود وأساطيرهم وحكاياتهم، وتعد لدى الهنود السفر الخامس من أسفار الحكمة، وتعتبر مصدراً غنياً من مصادر التصوف. وقد عُني بها أيضاً المسلمون في الهند، فترجمت إلى الأوردية، ونشرت لباحثين مسلمين حولها دراسات كثيرة، كما ذكرها ابن المقفع الذي كان جسراً ثقافياً يربط بين بلاد الهند والفرس والعرب في العصر الذي نشطت فيه الترجمة وازدهرت المكتبات.

كل شيء يأتي من بلاد الهند يوحى بالضخامة والغرابة والإمتاع، وكذلك هي المهابهاراتا التي تفوق في حجمها ثمانية أضعاف الإلياذة والأوديسة مجتمعين، وقد جمعت والفت قبل الميلاد بحوالي ألف وخمس مئة سنة، ولكن جرت عليها إضافات وتعديلات حتى استقرت على

امتزجت المهابهاراتا بدماء الشعب الهندي وجسدت فنونه وأدبه